﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾:

﴿أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ هي طبقاتها السبع، بأبوابها السبع، والأبواب الأسباب لدخولها وهي الرذائل السبع، دون السبع الثانية إلى عرصة واحدة، حيث التعبير الصالح لها «فادخلوا من أبواب جهنم» دون ﴿أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ فإنها مدخل لا مدخل، ثم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ تخلدهم في تلكم الأبواب، ولا خلود لأي داخل من باب في الأبواب[1]!.

وهل أنها ﴿أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ في الحياة البرزخية كما هي قضية الحال لحال الاحتضار، ولمّا تقم القيامة حتى يدخلوا أبواب جحيمها؟ وليس هنالك خلود حيث تنتهي حين تقوم القيامة الكبرى!.

أم أنها ﴿أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ الآخرة، أمراً في الحال، بياناً للآمل، وتطبيقاً في الاستقبال؟ وجهنم البرزخ أقرب للدخول، وأحرى من الآخرة أمراً بالدخول، والخلود هو البقاء مدة طويلة، والحياة البرزخية طويلة أمام الدنيا، مهما كانت قصيرة أمام الآخرة!.

أم أنهما معاً معنيّان، أمراً استمرارياً بدخول أبواب جهنم برزخاً وفي الآخرة، وذلك أحرى، ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ في الآخرة والأولى،

= فأما قول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزُّمَر: ٤٢] و﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۖ﴾ وما أشبه ذلك، فمرة يجعل الفعل لنفسه ومرة لملك الموت ومرة للملائكة، فاما قول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزُّمَر: ٤٢] وقوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [السَّجدَة: ١١] و﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعَام: ٦١] و﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۖ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [النّحل: ٢٨] فهو تبارك وتعالى أجل وأعظم من أن يتولى ذلك بنفسه...

أقول أجل إنهن أجلّ من ذلك، وهذا يلمح بأنه يتولى بنفسه قبل أرواح الأجلاء من خلقه، ثم من دونهم ملك الموت ثم ملائكة الرحمة، ثم للكفار ملائكة العذاب.

(١) راجع إلى تفسير الآية ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ...﴾ [الحِجر: ٤٤] في الحجر.

والآخرة لهم أنكى وأبقى ذلك بما هنالك للضفّة الجهنمية، ثم إلى ضفّة الجنة وأصحابها حرفاً بحرف وأين حرف من حرف؟

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿خَيْرًا﴾ هنا هي خير تلخيص لما أنزل ربكم، وقد يعم كل نازل من مقام الربوبية تكويناً وتشريعاً، ومن كتابات الدعوة والرسل الداعية، وما سهّل الرب لهم حتى تسهّل لهم قبول الدعوة، كل ذلك تعنيها ﴿خَيْرًا﴾!.

فـ ﴿خَيْرًا﴾ هنا وجاه ما هناك ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ثم ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟...﴾ هنا وجاه ما هناك «ليحملوا - إلى - مثوى المتكبرين» إذ لو كانت هذه من مقالتهم بعد ﴿خَيْرًا﴾ لكانت قضية الحال فصاحة وبلاغة «لنا في هذه الدنيا حسنة.. ولدار الآخرة خير لنا» فإنهم هم المتقون أنفسهم، كما و﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا...﴾[1] دون «ندخلها» قرينة أخرى على أنها مقالة الرحمة جواباً عن قولهم ﴿خَيْرًا﴾.

فـ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾: أحسنوا في هذه الدنيا عقيدة وعملاً صالحاً، لهم ﴿حَسَنَةٌ﴾ في كل النشآت، كما لهم ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ والأصل تعلق «في هذه» بـ ﴿أَحْسَنُوا۟﴾ وتعلقه فقط بـ ﴿حَسَنَةٌ﴾ تختص الحسنة بهذه الدنيا وهو خلاف الضرورة، اللهم إلّا تعلقاً هامشياً ان لهم حسنة في هذه الدنيا كما في الآخرة، وكما يتطلبون في دعائهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2].

ومن حسنة الدنيا للذين أحسنوا في هذه الدنيا نصر الله الموعود لهم:

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[1] وكما منها حياتهم فيها بحذافيرها وظلماتها وظلاماتها وشهواتها، فإنهم يجتازونها سالمين وكما يروى عن رسول الهدى ﷺ: جزناها وهي خامدة!.

لكن ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ حسنة من الدنيا للذين أحسنوا فيها ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أهي الدار الآخرة، حيث الدنيا لهم مدرسة ودار مجاز، لا دار مقام، مهما كانت هي - أيضاً - كذريعة وعلى هامش الآخرة نعم الدار حيث المتقون دنياهم آخرة لأنها مزرعة الآخرة؟ أم هي الدنيا لقرن ﴿دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالآخرة[2]، أم هي دورهم كلها في النشآت الثلاث ثانيتها دار البرزخ، فلأنهم يتقون محاظيرهم، فلنعم دارهم حيثما دار، تقوى في الأولى، ونتيجة التقوى في الأخريين، مهما كانت الآخرة أنعم وأحسن الحسنيين.

ف ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ حيثما دار في النشآت الثلاث وأوسطها البرزخ، مهما كانت الآخرة أنعم وأرقى، وهي:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾:

فمهما كانت لهم الحياة الدنيا الإيمانية، ﴿جَنَّٰتُ﴾ ومن وراءها في البرزخ جنات، ولكنها غير عدن مهما كانت البرزخ أطول من الدنيا، وفي النشأة الثالثة والأخيرة لهم ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ واستقرار لا موت فيها ولا خروج عنها لأنها عطاء غير مجذوذ، فهي هي دار المتقين مهما كانت لهم في الأولى والثانية دار حيات وعيشة حسنة.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٢ عن تفسير العياشي عن ابن مسكان عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ولنعم دار المتقين - قال: الدنيا - أقول وهذا تفسير بالمصداق الأدنى فأوسطه البرزخ وأعلاه الآخرة.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ في قيامة الإحياء، بعدما كانوا في جنات برزخية، ﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ وبطبيعة الحال لا يشاءون فيها إلا كما يناسب ظروف الجنة وأهلها المتقين ﴿كَذَٰلِكَ﴾ العظيم الرحيم العميم ﴿يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُۙ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾:

وهذه الجنة - وهي عند ما يتوفّون - هي البرزخية، وليست هي العدن التي لا يدخلونها إلّا في الآخرة، فهذه - أذن - من الآيات الدالة على الحياة البرزخية. و﴿طَيِّبِينَۙ﴾ هنا مقابل «ظالمين» هناك هم الطيبون من الظلم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[1] من أظلم الظلم وهو الشرك، ثم سائر الظلم، فهم - إذاً - من ليست له حين يتوفّى إلّا الجنة، كما الأولون هم من ليست لهم إلّا النار، وبينهما عوان يجمع لهم بين العذاب والثواب، لم يذكروا هنا وهناك.

ثم الطيب هو ما يستطاب كما هو ما يستطيب، والطيبون عند توفيهم تستطاب أقوالهم ونياتهم واعمالهم، وهم عند الله مرضيون يستطابون، فأوّل ما يقال لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُۙ﴾ قولاً وفعلاً وحالاً، ومن سلامهم فعلاً: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ على ضوء الإيمان والطيب.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾:

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ وينتظرون حماقى الطغيان، اصحاب القلوب المقلوبة المنكرة المستكبرة، الكافرة المضلّلة، ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن...﴾؟ هنا، وفي البقرة ﴿...إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[١] ثم في الأنعام: ﴿. . . إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[٢]: انتظارات مبكرّة لما يأتي في وقته المقرر له، هنا أم عند الموت أم يوم القيامة، أم مستحيلة كإتيان الله مع الملائكة، ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٣]؟ ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ -: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٤] ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ في ذلك العذاب الماكر الباكر ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث تطلبّوه مبكّراً واستحقوه من قبل بما عملوا، وأولى لهم حين تطلبّوه.

ونظرتهم أن تأتيهم الملائكة، علّها إتيانهم لهم بالوحي، أم بتصديق محمد ﷺ حيث يدعي الوحي، أم بالعذاب الموعود لهم إن لم يؤمنوا وهم مستمرون في التكذيب والتأنيب والتضليل، واللفظ وقضية الحال يناسبان ثالوث الانتظار الاحتضار.

﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ علّه هو أمر الله فلا تستعجلوه، سواء أكان أمر انتصار الحق، هنا وفي الآخرة، هزء، إذ ما كانوا به يؤمنون، أم أمر استئصالهم، أم أمر القيامة حتى يصدقوها بالمشاهدة فكذلك الأمر، وهنا ﴿رَبِّكَ﴾ تلمح بإنه انتظار لما ينكرونه تعنتاً، لأنه من اختصاصات وحي الرسالة.

وعجب من أمر هؤلاء - الإمر - فإنهم يرون ويسمعون ما حلّ بمن

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٤٣.
(٤) سورة النحل، الآية: ٢٦.

قبلهم، ممن سلكوا مسلكهم، ثم هم من بعدهم يظلون سادرين ما سادروا، ضالين كما ضلوا، غافلين عن سنة الله في الغابرين، وإنها لن تحابيهم ولا تتوقف إزاءهم وقفة عن أذاهم إذا هم سادرون كما هم، كأنهم أقوى منهم! فما اغفلهم وأغواهم عن مصيرهم بمسيرهم:

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

عمل السوء سيئة، وأثره بطبيعة الحال سيئة، في الدنيا وفي الآخرة، وهنا ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ علها هي الأعمال نفسها، حيث ظهرت بشيء من حقائقها يوم الدنيا عذاباً يمثل الأخرى، وقد عبّر عنه بـ ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ دون ما عملوا، فإن للأعمال الخاطئة نشآت ثلاث، يوم الدنيا حيث تظهر بشيء من حقائقها كما تناسب الدنيا وليست هي دار جزاء، ثم تظهر بشيء أوفر في البرزخ، ثم في الأخرى يجزاه الجزاء الأوفى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1].

فلأن السيئة وجاه الكبيرة هي القليلة وجاه الكثيرة، فـ ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ هي قليلة من كثيرة، فإن ﴿مَا عَمِلُوا۟﴾ كبائر ما أكبرها، وما أصابهم ليس إلّا شطر قليل من حقائقها الجهنمية.

ولأن ﴿مَا عَمِلُوا۟﴾ ليست إلّا خطايا، فـ ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ ليست إضافة تقتسم ما عملوا إلى سيئات وسواها، ولا إضافة الصفة إلى موصوفها، إذ تشمل كل خطاياهم وما أصابهم إلا سيئاتها هنا، بل هي إضافة الجزء إلى الكل، فلم يصبهم كل ما عملوا لأنه مؤجل إلى الآجلة، وانما بعض مما عملوا قليل، فإنه للعاجلة، كما البرزخ بينهما للبرزخ بينهما، هذا، مهما كان هناك ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ الظهور التام لاعمالهم يوم القيامة، إضافة الصفة

(١) سورة النحل، الآيات: ٣٩-٤١.

إلى موصوفها، حينما تقوم قرينة: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1] فإنها بعد ذكرى من سوء العذاب يوم القيامة، واما هنا فهو يوم الدنيا.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ حيطة مزمجرة مدمّرة هنا ﴿مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من عذاب الاستئصال، وكما كانوا ينظرونَ مْرُ رَبِّكَ نظرة الهزء، المتعنتة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾:

هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ هم الذين خولطوا فخالطوا بين المشيئة التكوينية والتشريعية، فلانهم يرونهم مشركين، فلو شاء الله ألّا يشركوا ما كانوا مشركين، إذا فقد شاء الله شركهم فأشركوا كما شاء إيمان الموحدين فوحّدوا.

ف «لو» هنا - على حد تعبيرهم الخالط الغالط - تحيل مشيئة التوحيد لهم، استدلالاً بواقع شركهم، وأن مشيئة الله لا تغلب، إذا فقد شاء واقع الشرك منا فأشركنا، أم لم يشأ منا شيئاً لا شركاً ولا سلبه فلماذا تدعوننا إلى رفضه، أم شاء التوحيد فتغلبت مشيئتنا على مشيئة الله وذلك كفر بالله، فهكذا يتبرر شركنا بالله، حفاظاً على كرامة الله!.

ومنهم الجبرية الناكرة للاختيار في الأفعال، يقولون مثل قولهم، و﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المشركين، استصواباً لفعلهم بذلك البرهان الماكر الحاكر، ولكن: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أنه ما شاء ولن يشأ شركهم في شرعته، ودعاهم ببلاغ رسالي مبين في الآفاق وفي

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٨.

أنفسهم إلى توحيده، وخيّرهم بين الإيمان والكفر، ورغّبهم في الإيمان ونددهم بالكفر ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؟!.

فقد شاء الله ألا تعبدوا إلّا إياه أمراً مخيراً، ولم يشاء الله أن تعبدوا سواه أمراً مسيّراً:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

و﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾ - إلى - ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ يحمل أمره التشريعي، ثم ﴿فَمِنْهُم... ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ يحمل التكويني، وإنه لا يهدي إلّا من اهتدى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[1] ولا يضل إلّا من ضل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2] تشريع يحبذ الإيمان، وتكوين بعد الكفر أو الإيمان، فليست بداية الكفر أو الإيمان - إذاً - تسييراً دون اختيار، وإنما مزيد الكفر والإيمان جزاءً وفاقاً.

وهؤلاء الذين ضلوا باختيارهم وعلى علم، معاندين للحق ومحايدين للباطل، ليس الله ليهديهم تسييراً بعدما اختاروا الضلالة فأضلهم كما ضلوا، وإن كنتم في ريب من بعث الرسل حاملين مشيئة الله التشريعية في التوحيد والمعاد والشرعة الموصلة بين المبدء والمعاد، أم في ريب من عاقبة المكذبين لهذه الرسالات ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تأريخياً وجغرافياً، سيراً بأنفسكم في أكناف الأرض؟ وذلك غير ميسور لأكثر أهل الأرض! أم سيراً في التأريخ الجغرافي والجغرافيا التاريخي نظراً في السير؟ وفيها حق وباطل! أم نظراً في القرآن؟ وهو أضمن سير وأسلمه، وفي مثلث السير ذكرى مهما اختلفت الدرجات.

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.

﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ به. بما ضل، ولا ﴿مَن يُضِلُّ﴾ سواه بما أضل، فمن ضل وأضل ليس الله ليهديه سواء السبيل، اللهم بإكراه وهو خلاف سنة الله ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾[1]، ثم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يهدونهم بعدما أضلهم الله وما هدى، ولا من ناصرين ينجونهم من عذاب الله الموعود لهم، ولماذا ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ وهي لا تنفي سوى الجمع فعلّ لهم ناصراً إن لم يكن ناصرون؟.

«من» هنا تجتث جذور النصرة أياً كانت ومن أي ناصر، والجمع هنا ابلغ لاستغراق النفي، فـ «من ناصر» قد يعنى به ناصر يزعمونه كاصنامهم، و﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يحلّق على كل ناصر أياً كان، إلهياً رسالياً وملائكياً، أم سواهم، فلا نصرة هناك بعد إن لم ينصره الله ولن..

رجعة تفصيلية إلى الآيات الثلاث:

«ما عبدنا» مفعول لـ ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ كما قال الله ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا﴾[2] وترى كيف تتعلق المشيئة بالعدميات؟.

إن ﴿مَا عَبَدۡنَا﴾ في ظرف إرادة العبادة، أمر إعدامي وليس عدمياً لا تتعلق به المشيئة، فالأمور بين عدمي ووجودي، والثاني إيجادي وإعدامي، والمشيئة المتعلقة بـ ﴿مَا عَبَدۡنَا...﴾ تتعلق بإعدام التوحيد، إيجاباً لعبادة ما سوى الله وسلباً لعبادة الله، وهما أمران وجوديان دون العدمي الذي لا تتعلق به مشيئة الإعدام فإنه تحصيل للحاصل، ولا مشيئة لإيجاد حيث

(١) سورة يونس، الآية: ٩٩.
(٢) سورة النحل، الآية: ٣٥.

المعدوم لا يوجد، ولا يعني الخلق الإيجاد من اللّاشيء، بل هو بين الإيجاد لا من شيء والإيجاد من شيء.

فعلى زعمهم الخالط هنا مشيئتان اثنتان، منا أن نعبد سواه، ومنه إلّا نعبد سواه، و﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا...﴾ وتغلبت مشيئته على مشيئتنا، فلم يشأ - إذاً - ألّا نعبد، بل شاء أن نعبد، أم لم يكن له دور إيجابي أو سلبي في عبادتنا، فهي - إذاً - مشيئتنا فقط: أن نعبد سواه، أم ويشاء ما شئناه فتوافقت المشيئتان وتجاوبت.

و«من» الأولى في ﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ بيانية، والثانية جنسية تستأصل كل شيء، مشيئة تجعلنا لا نشرك به شيئاً أبداً، بل نعبده موحدين إياه.

فـ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ تشمل كلا النفي والإثبات المعنيين بـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾:

مشيئة إلهية تمنعنا عن عبادة ما سواه، وتحملنا أن نعبده لا سواه، فقد تعلقت المشيئة هنا بأمرين وجوديين، إيجاد التوحيد وإعدام الشرك، والثاني أصعب من الأول حيث يتطلب مشيئة أقوى منه، ومثالاً عليهما العبادات الإيجابية كالصلاة والسلبية كالصوم، فهل الصوم لا يحتاج إلى مشيئة وإرادة وهو صد النفس عن المشتهيات المبطلة له، وذلك أصعب من مشيئة الصلاة.

وهكذا يكون دور السلب في ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ فإنه أصعب من دور الإيجاب في ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فكيف يعتبر سلب الإشراك أمراً عدمياً لا تتعلق به مشيئة، بل هو إعدامي أقوى من الإيجاد و﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ هو ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الجامعة بين السلب والإيجاب، وهي تتطلب مشيئتين اثنتين، فأين تعلقها بأمر عدمي حتى تتطلب توجيهات في الحق هي تحمليات لا تتحملها الآيات!.

وهكذا الأمر في ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ فكنا - إذاً - موحدين